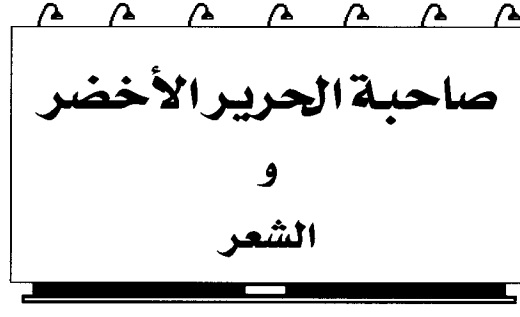
صاحبة الحرير الأخضر
و
الشعر

سيِّدة اللُّغات

اللغة العربية سيِّدة اللُّغات، بها تتشرَّف الكلمات، وببلاغتها وفصاحتها تُصْقَلُ المَلَكات، وتطيب على ضِفافِ أنهار بيانها الوقفات.

لغةٌ لها نَبْضُها المتميِّز، وإيقاعها المتفرِّد، وصياغتُها البديعة، ومقاماتها الرفيعة.

لغةٌ أَنْبَتَها الله في جزيرة العرب نباتاً حَسناً، وسخَّر لها مَلَكاتِ قوم يتفاضلون بالفصاحة، ويتقدَّم بعضهم على بعض بالبلاغة والبيان، ويتوقَّف أحدهم أمام حكمة جرت على لسان حكيم، أو جملةٍ تدفَّقت من فم خطيب، أو بيت شعر جادت به قريحة شاعر، يتوقف أمام ذلك توقُّف المسحور الذي لا يكاد يملك من أمره شيئاً.

ولماذا لا يكون الأمر كذلك؟ والرسول ﷺ يؤكد لنا سحر البيان بقوله: «إن من البيان لسحراً»، وهو الذي قال:

«أنا أفصح العرب بَيْدَ أني من قريش».

ولو لم تكن هذه ميزة كبيرة لما وردت على لسانه ﷺ بهذه الصورة من الإشادة والتكريم.

في جزيرة العرب تفرَّعت أغصان اللغة العربية الفصحى بين روائع النثر من خطابة وحكمة ومنافرات ومحاورات، وبين بدائع الشعر من أبياتٍ ذائعة الصيت ومناقضاتٍ ومعارضات ومعلَّقات.

هنالك نبتت شجرتها، وثبتت جذورها، وتفرَّعت أغصانها، وأينعت ثمارُها.

وهنالك سرى بها الشعر العربي الفصيح، والنثر البليغ وهما يتسابقان في الميدان، ويتباريان ويتنافسان، حتى إذا وجد الشعر مجاله الأرحب، أطلق أوزانه للريح، وتجاوز غيره في ذلك الميدان الفسيح.

ديوان العرب

هنا صار الشعر ديوان العرب، حلَّقت لغتهم بأجنحته في آفاق الفصاحة والبيان، تنقل إلى الناس أجمل الصور البلاغية، وأنقى الأساليب البيانيَّة، وأرقى الأوزان والقوافي، وتغذِّي ألسنتهم بفصيح القول، وجميل العبارة، وبديع الأسلوب.

الشعر .. نبع اللغة الذي تفرَّعت منه أنهارُها، وامتدت عبر القبائل العربية تسقي منابت شجر الفصاحة، وتروِّي مشاتل أزهار البلاغة، وتغسل الشواطئ من كل كلمة دخيلة، أو لحنٍ مَشين.

ولعل ذلك هو الذي لا يجعلنا نبتعد عن الحقيقة إن قلنا: إنَّ الشعر عند العرب - قبل الإسلام - كان هو اللغة، وإن اللغة كانت هي الشعر؛ فمن أراد أن يتدفق بيانه، ويستقيم على نَهْج الفصاحة لسانه، وتسلم عبارته من الوهن، وأسلوبه من الخلل، فما عليه إلا أن يحفظ ما يستطيع من الشعر العربي البديع، وعندها .. سيرى أنَّ اللغة أسلمتْ إليه العنان، وأشارت إليه بالبنان، وفتحت له مغاليق البيان، ومنحته ثروة لغوية عظيمة تسعفه بأجمل الكلمات وأرقاها.

ولعل هذا هو الذي جعل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «رَوُّوا أولادكم الشعر تعذبْ ألسنتهم».

يالها من كلمة عميقة تدل على وعي كبير بجمال اللغة العربية. «تهذب ألسنتهم»! نعم، إنها عذوبة الفصاحة العربية وحلاوتها، تعرفها صاحبة الحرير الأخضر معرفة الخبير بها، المدرك لمكامن الجمال فيها.

ولذلك أكدت - رضي الله عنها - في كلمتها أن رواية الأولاد للشعر من أهم أسباب إتقانهم للغة، ومن أعظم وسائل استقامة ألسنتهم بها حتى تصبح عَذْبة حلوة.

هنا يتجلَّى قدر اللغة عند عائشة، ومكانة عائشة عند اللغة، وهنا تبرز الميِّزات التي سيجلِّيها لنا ما نتناوله من النصوص التي أثرتْ بها أمُّنا (صاحبةُ الحرير الأخضر) لغتَنا العرَبية وأدبَنا العربيَّ على مَرِّ العصور.

إنَّ هذه العلاقة المتميِّزة بين أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وبين اللغة العربية هي التي سهَّلت أمامها دروب الفهم الصحيح لما تسمعه من نصوص البيان العربي خطابةً وشعراً، وهي التي فتحت أمامها أبواب الإدراك لما تسمعه من آيات الوحي المبين، ومن أحاديث سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام، وهي التي طوَّعت لها أساليب الفصاحة والبيان، فنقلت إلينا صوراً مشرقة حيَّةً من حياة الرسول ﷺ، وموافقه، وأفعاله وأقواله في حَلِّه وترحاله، وفي سلمه وحربه، وصوراً أخرى من حياتها معه وتجاربها مع صواحبها أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وصوراً أخرى مؤثرة من معاناتها في الحياة، وخاصة فيما يتعلَّق بالحدث الأعمق والأضخم والأبعد غَوْرَاً في نفسها «حديث الإفك».

المذاق الخاص

إن تعامل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مع اللَّغة ذو قيمة خاصة، ومذاقٍ خاص.

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى قد منحها عقلاً راجحاً، وفهماً ثاقباً، ونفساً كبيرة، وقلباً حيَّاً نابضاً بالحب والعطف، ونية الخير، ومن هنا كانت لغتُها ذات عُمْقٍ خاص، وذات قدرة فائقة على التأثير في نفس من يقرؤها.

قال ابن اختها عروة بن الزبير - رضي الله عنهم -: «ما رأيت أحداً أعلم بفقهٍ ولا بطبٍّ ولا بشعر من عائشة رضي الله عنها»[1].

«لقد صحبت عائشة فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآيةٍ نزلت، ولا بفريضةٍ ولا سنة ولا شعر ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب ولا بنسبٍ ولا بقضاء، ولا طبٍّ منها، وربما حفظت القصيدة ستين بيتاً أو أكثر من أوَّل سماعها»[2].

---

(١) أسد الغابة: ١٩٢/٦.

(٢) جوامع السيرة ص: ٢٧٦، ومرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير للدكتور سعود الفنيسان ص: ١٠.

هنا شهادةٌ عالية على تميُّز صاحبة الحرير الأخضر، وتأكيدٌ للصفات الممتازة التي أنعم الله عليها بها، وهي صفات - كما نرى - جديرة بأن تؤهِّل صاحبتها لذلك الاختيار الإلهي العظيم، الذي نُقِلَتْ به صورتها على خرقة حرير خضراء بواسطة أمين وحي السماء، إلى سيد الأنبياء.

الأمر يتجاوز العناية باللُّغة في حد ذاتها، ويصبح أشمل وأوسع بما عرف عن عائشة رضي الله عنها من إلمامٍ بعددٍ من المعارف والعلوم.

فهي تجمع بين علمها بالقرآن والسنة والفقه والطبِّ وتاريخ أيام العرب، والقضاء والأنساب، وهذه صفاتٌ تضعها في مصافِّ العلماء الأجلاء الذين هم مصابيحُ الأمة ومرشدوها إلى الخير.

ثم هي بعد ذلك وقبله على إلمامٍ كبير بأصول اللغة وفروعها، وكلُّ ذلك قد تحقَّق لها بسبب عنايتها وعلوِّ همتها من جانب، وذكائها وسعة فهمها من جانب آخر.

ألم يخبرنا عروة بن الزبير أنها ربما حفظت من الشعر ستين بيتاً أو أكثر من أوَّل سماعها؟؟.

هنا تبرز لنا موهبة نادرة تتمثَّل في سرعة الحفظ وجودته مع

عمق الفهم للمعاني والأفكار، وهذا كما نرى لا يتأتّى إلا لمن منحه الله بفضله الذكاء والفطنة والوعي.

ستون بيتاً أو أكثر ترسخ في ذهن عائشة من أوّل سماعها!! إنها ثروة لغوية هائلة بلا شك.

ثروة أدبية

وها هي ذي (صاحبة الحرير الأخضر) تصبح مثالاً كبيراً لعظمة الدين الإسلامي الذي يفتح آفاق العلم والأدب الفسيحة أمام كل مسلمٍ ومسلمة؛ لينهلوا من مناهلها الصافية النقيَّة، وليرتفعوا بثقافة الأمة وفكرها وأدبها ولغتها عن أوحال الهوى والرذيلة.

يقول المقداد بن الأسود: «ما كنت أعلم أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ أعلم بشعرٍ ولا فريضةٍ من عائشة رضي الله عنها»[(١)].

هكذا نجد الإشادة بعلمها بالشعر عاملاً مشتركاً بين معظم الذين تحدَّثوا عنها من الصحابة، ولا شك أن في ذلك شهادة ذات قيمة كبيرة بتفوُّق صاحبة الحرير الأخضر لغوياً وأدبياً.

بل إنها هي تؤكد لنا هذا التميُّز في عنايتها باللغة العربية من خلال الشعر، فتقول - فيما رواه عنها ابن أبي ملكية -: «رحم الله لبيداً كان يقول:

قَضٌ اللُّبانَةَ لا أبالكَ، واذهب
والحقْ بأسرتك الكرام الغُيَّبِ

(١) العقد الفريد: ٥/٢٧٤.

ذهب الذين يُعـــاش في أكنافـــهم

وبقـــيتَ في خَلْفٍ كـــجلد الأجـــربِ

ثم تقـــول: إني لأروي ألفَ بيتٍ للبـــيـــد، وإنه أقلُّ مـــا أروي لغيره»[1].

إذن فنحن أمام ثروة أدبية كبيرة، تستحق أن يقف عندها دارسو الأدب والشعر وقفات طويلة، تخرجهم من سيطرة رواة الشعر والأدب الذين تسيِّرهم مصالحهم وأهواؤهم وعصبيَّاتهم القبلية والسياسية.

نعم، إن امرأة كريمة تروي لشاعر واحد ألف بيت من الشعر، وهو أقل ما تروي لغيره من الشعراء، لجديرةٌ أن تحظى حياتها العلمية والأدبية بالعناية والدراسة، فكيف إذا كانت هذه المرأة الكريمة هي صاحبة الحرير الأخضر، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(١) خزانة الأدب للبغدادي: ٣/٢١٦.

ينابيع وأنهار

أيها القراء الكرام..

قفوا معي الآن أمام لوحةٍ من التاريخ معلَّقةٍ في الأفق، تسكب عليها الشمس دفقاتٍ من نورها الصافي، تُبرز أمامنا - بوضوح - كلَّ حرفٍ نُقش عليها، انظروا إلى تلك اللوحة الرائعة واقرؤوا معي ما كُتب فيها: «يُروى أن رسول الله ﷺ سمع عائشة - رضي الله عنها - تنشد شعر زهير بن جناب:

ارفع ضعيفك لا يَحُرْ بك ضعفُه

يوماً فتدركَه عواقبُ ما جَنَى

يَجزيك أو يُثني عليك، فإنَّ من

أثنى عليك بما فعلْتَ كمن جزى

فقال عليه الصلاة والسلام - فيما روي عنه -: «صدقت يا عائشة، لا يشكر اللهُ مَنْ لا يشكر الناس»[1].

ما رأيكم في مضمون هذه اللوحة التاريخية الجميلة؟؟

أرأيتم هذه المرأة (قدوة نساء المسلمين) وصاحبة الحرير

(١) العقد الفريد: ٥/٢٧٤.

الأخضر، كيف تقطف من دوحة الشعر العربي الأصيل ما تريد من الثمار، وهي لا تفعل ذلك دون وعي بنوع الثمار التي تقطفها، كلاَّ، إنها تختار فتحسن الاختيار، وتقطف فتحسن القطف، وتنقل إلينا ما قطفت فتحسن النقل، وما أجلَّه من مقام وما أعظمها من نعمة أن تحظى بهذه التزكية النبوية - وهي أهلٌ لها -: صدقت ياعائشة».

هنا، لغةٌ عربية فصيحة عظيمة، لغةٌ واسعة الأفق، فسيحة الفِناء، عريقة الأصل، لغةٌ تألَّقت في جزيرة العرب قبل الإسلام شعراً ونثراً، ثم نزل بها القرآن الكريم فرفعها إلى الأعلى، وزادها تألُّقاً وجمالاً ورسوخاً.

وهنا امرأة كريمة، ذات خُلُق كريم، وعقل راجح، وذهن واعٍ، ونفسٍ مطمئنة. وهي زوجة لأفضل خلق الله وأفصح العرب قاطبةً، وبنتٌ لأحب أصحاب رسول الله ﷺ، وأفضلهم عنده، وهي بعد ذلك أم للمؤمنين أجمعين، وهي العالمة الأديبة الفصيحة التي تعرف كيف تتعامل مع لغة القرآن، وكيف تختار ما يليق من ألفاظها وأساليبها وشواهدها بالموضوع الذي تريد الحديث عنه.

وهنا رواياتٌ وأحاديث، وحكم وأمثال، وقصصٌ وعبر صاغتها لنا (صاحبة الحرير الأخضر) من تلك اللغة الخضراء، فرأينا بساتينَ وحدائق ذات بهجة، ورأينا ينابيع وأنهاراً، وزهوراً وأشجاراً.

ما ظنكم بأدب النبوَّة؟

يُروى عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه خرج بعد زيارته لعائشة متكئاً على عبدها ذكوان، وهو يقول: «والله ما سمعت - قَطُّ - أبلغ من عائشة، ليس رسول الله ﷺ»[1].

وقال عنها موسى ابن طلحة فيما رواه الترميذي: «ما رأيت أحداً أفصح من عائشة»[1].

أما الشَّعبيُّ فهو يتعجَّب من فقهِها وعلمها ويقول: «ما ظنكم بأدب النبوة»[1].

ويروي الحاكم في مستدركه عن الأحنف بن قيس قوله: «سمعت خطبة أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وخُطب الخلفاء إلى يومي هذا فما سمعت الكلام من فم مخلوقٍ أفخم ولا أحسن منه من في عائشة رضي الله عنها»[2].

هذا غيض من فَيْضٍ من الشهادات الموثَّقة التي أطلقها أهل

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء: أ:١ص: ٥٤ رقم الترجمة ١١٩.

(٢) السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة النساء. تأليف عبدالحميد طهماز ص: ٢٢١.

فصاحةٍ وبلاغةٍ وبيان في تأكيد هذا التميزُّ اللغوي والأدبي عند (صاحبة الحرير الأخضر) - رضي الله عنها وأرضاها -.

وليس خافياً ما في شهادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وهو ذو البلاغة والبيان، وأحد كتَّاب الوحي، من الدلالة القوية على كون بلاغةِ عائشة وفصاحتها من الطراز الممتاز الذي يستوقف ويستثير الاهتمام.

فهو ينفي أن يكون قد سمع أبلغَ من عائشة، ويستثني من ذلك الرسول ﷺ الذي هو أفصح العرب بلا منازع.

وشهادة الأحنف بن قيس وهو من أفصح العرب، وأبلغهم لا تقلُّ عن شهادة معاوية، فهو يحدِّد أسماء الخلفاء المعروفين بالفصاحة والبيان وقد سمع منهم وروى عنهم، وهو على معرفةٍ تامَّةٍ بقدراتهم البيانية، ولكنه يؤكد - مع ذلك - أن عائشة - رضي الله عنها - أفصح منهم لساناً، وأفخم لفظاً، وأحسن بياناً.

نعم إنه (أدب النُّبوَّة)، وكفى، وهذا ما أكَّده الشَّعبي - يرحمه الله - حينما تساءل - لتأكيد علم عائشة وفقهها، قائلاً: «ما ظنكم بأدب النبوة»؟.